سيمياء الحرير والسواد: الراية الأندلسية كرمز للشرعية السياسية والهوية القبلية (١٣٨ - ٨٩٧ هـ / ٧٥٥ - ١٤٩٢ م)

The Semiotics of Silk and Black: The Andalusian Banner as a Symbol of Political Legitimacy and Tribal Identity (138–897 AH / 755–1492 CE)

إعداد الباحث

د. ماهر ختال شريمط العبيدي

Dr. Maher Khattal Shreimat Al - Obaidi

التدريسي في الكلية التربوية المفتوحة

- مركز الأنبار - فرع هيت الدراسي -

07816089100

m1985ah@gmail.com

Journal of Islamic Sciences
Vol.2 | Issue 43
ISSN: 2225-9732
August 2026

مستخلص البحث

يتناول البحث الألوية والرايات في الأندلس منذ قيام الإمارة الأموية حتى سقوط غرناطة، من منظور سيميائي وتاريخي يتجاوز وظيفتها العسكرية، ويحللها بوصفها وثائق بصرية تعكس الشرعية السياسية والصراعات الإقليمية والقبلية، كما يدرس دلالات الألوان والخامات المستخدمة وعلاقتها بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واعتمد البحث المنهج السيميائي التحليلي إلى جانب المنهج التاريخي المقارن، مستندًا إلى مصادر أندلسية ومشرقية أصيلة، وأسهمت الدراسة في تقديم قراءة جديدة تختلف عن التفسيرات التقليدية للألوية والرايات في الأندلس.

الكلمات المفتاحية: الألوية الأندلسية، السيمياء التاريخية، الشرعية السياسية، العصبية القبلية، بنو نصر.

Abstract:

This study examines the banners and standards of al - Andalus from the establishment of the Umayyad Emirate to the fall of Granada through a semiotic and historical approach that goes beyond their purely military function. It analyzes them as visual documents reflecting political legitimacy and regional and tribal conflicts, while also exploring the symbolic meanings of their colors and materials in relation to political, economic, and social transformations. The study adopts a socio - semiotic analytical approach alongside the comparative historical method, drawing on authentic Andalusian and Eastern Islamic sources. It offers a new interpretation that differs from the conventional military - centered understanding of banners and standards in al - Andalus.

Keywords: Andalusian Banners and Standards, Historical Semiotics, Political Legitimacy, Tribal Solidarity (ʿAsabiyyah), Nasrid Dynasty.

المقدمة

شهد التاريخ الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية صياغة فريدة للرموز السياسية والحضارية، حيث تمازجت عناصر الهوية العربية الوافدة مع الخصوصيات الجغرافية والثقافية والبيئية للأندلس. وضمن هذه المنظومة الرمزية المعقدة، احتلت «الألوية والرايات» مكانة الصدارة كأدوات بصرية فائقة القدرة على تكثيف الدلالات العقائدية، والسياسية، والقبلية في مساحة جغرافية تميزت بالاضطراب السياسي المستمر والتعددية الإثنية والاجتماعية الدائمة(١).

وتنبثق إشكالية هذا البحث من قصور الدراسات التاريخية النمطية التي حصرت الألوية والرايات ضمن الأثاث العسكري والتكتيك الميداني البحت للحروب، مغفلةً القيمة الأثرية والأنثروبولوجيا والسيميائية الكامنة وراء هذه الشعارات.

فالراية في العرف الأندلسي لم تكن مجرد قطعة من القماش الملون تُرفع فوق الرماح لتوجيه الفرسان، بل كانت بمثابة نص سياسي وأيديولوجي يُقرأ من خلاله ميزان القوى الداخلي، ونوع الشرعية المدّعاة من قبل الحاكم، ومستوى التماسك الاجتماعي للدولة في مواجهة الأخطار الخارجية(٢).

بناءً على ذلك، يطرح البحث فرضية مفادها أن التغير في خامة الراية (من الكتان الخشن إلى الحرير) والتغير في لونها (من الأبيض إلى الأسود أو الأحمر) لم يكن خياراً جمالياً أو عفوياً، بل كان انعكاساً لتموضعات سياسية واقتصادية بالغة الخطورة، وتعبيرًا عن أزمات شرعية حادة واجهت النظم الحاكمة في الأندلس.

أهمية البحث: تكمن أهمية هذا البحث في إبراز الراية الأندلسية بوصفها رمزًا سياسيًا وثقافيًا تجاوز وظيفتها العسكرية لتصبح أداةً لتجسيد الشرعية السياسية وترسيخ الهوية القبلية في الأندلس خلال المدة (١٣٨ - ٨٩٧هـ / ٧٥٥ - ١٤٩٢م)، كما يسعى إلى الكشف عن الدلالات

(١) المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ١ / ١٢ - ١٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت ٥٩٤هـ)، المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م، ص ٤٤.

السيميائية لألوان الرايات وخاماتها، ولا سيما الحرير والسواد، ودورها في تشكيل الخطاب السلطوي وإنتاج الرموز المرتبطة بالسلطة والانتماء، ويُسهم البحث في سد جانب من النقص في الدراسات التاريخية التي تناولت الرايات الأندلسية من منظور سيميائي يجمع بين التحليل التاريخي والدلالي.

اهداف البحث: يهدف البحث إلى تحليل الرموز السيميائية للحرير والسواد في الراية الأندلسية، وبيان علاقتها بتجليات الشرعية السياسية والهوية القبلية في المجتمع الأندلسي. كما يسعى إلى تتبع تطور استخدام الرايات عبر الدول المتعاقبة في الأندلس، والكشف عن أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية في ضوء المصادر التاريخية. ويهدف كذلك إلى تقديم قراءة تأصيلية تُبرز الراية بوصفها خطابًا بصريًا أسهم في ترسيخ مشروعية الحكم وصياغة هوية الجماعات السياسية والقبلية في الأندلس

إشكالية البحث: تكمن مشكلة البحث في القصور المعرفي والمنهجي للدراسات السابقة التي حصرت الألوية والرايات الأندلسية في إطارها العسكري، وأغفلت أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والرمزية، ويسعى البحث إلى إعادة قراءتها بوصفها وثائق بصرية تعكس الشرعية السياسية، وصراع القوى، والتحولات الحضارية في المجتمع الأندلسي.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثان ولكل مبحث مطلبان وخاتمة وعلى النحو الاتي:

المقدمة في فلسفة الرمز البصري في الفضاء الحضاري الأندلسي.

التمهيد المفاهيمي حول التطور الدلالي واللغوي للّواء والراية في الفكر الإسلامي والأندلسي

المبحث الأول: البعد المادي للراية الأندلسية (الخامة والنسيج بوصفهما دلالة حضارية واقتصادية).

المطلب الأول: مرحلة التقشف العسكري وعصر الولاة و: طفرة الحرير الأندلسي وظهور دار الطراز في قرطبة والمرية.

المطلب الثاني: جدلية السواد والبياض والنزاع على الشرعية السياسية بين قرطبة وبغداد

المبحث الثاني: التعددية البصرية وأثرها في تماسك وهيكلية الجيش الأندلسي.

المطلب الأول: رايات العصبيات القبلية مقابل «اللواء الأعظم» للسلطة.

المطلب الثاني: البنية البصرية وسيمياء التعبير التراجيدي

التمهيد المفاهيمي:

التطور الدلالي واللغوي للّواء والراية في الفكر الإسلامي والأندلسي

قبل الولوج في الخصوصية الأندلسية، يستلزم البحث تأصيلاً مفاهيمياً للفرق بين المصطلحات الدلالية للشعارات البصرية في اللسان العربي وفي العرف العسكري. ففي المعاجم اللغوية، يُشتق اللواء من «اللّيّ» وهو الثني والربط، بينما الراية هي العلم الضخم الذي يُقصد ويكون علامة للمجتمعين(١). واللواء في صدر الإسلام كان يمثل الشعار الأكبر للجيش أو الدولة، وهو الذي يُعقد للقائد العام ولا يتحرك من مكانه إلا بإذنه، بينما الراية (Sign / Standard) هي الشعار الأصغر الذي يُمنح لقادة الوحدات العسكرية والقبائل داخل المعسكر الواحد لتسهيل التمييز والمناورة الميدانية(٢).

إلا أن هذا التمايز المفاهيمي شهد تطوراً ملحوظاً في البيئة الأندلسية؛ حيث تداخلت المصطلحات نتيجة لتأثر الإدارة العسكرية الأندلسية بالنظم البيزنطية والقوطية السائدة في شبه الجزيرة الإيبيرية من جهة، وتطور النظم الإدارية الأموية الموروثة من الشام من جهة أخرى(٣). غدت الألوية في الأندلس ترتبط بالبروتوكول السلطاني والخلافي الرفيع، وأصبحت صناعتها والإشراف عليها وظيفة إدارية وسياسية رفيعة المستوى يتولاها كبار رجال الدولة وثقات الحكام.

لقد منح المجتمع الأندلسي، بطبيعته القائمة على ثقافة «الثغور والمواجهة الكبرى»، الراية بعداً تقديسياً؛ فصارت سلامة اللواء في أرض المعركة تعني سلامة الدولة واستمرار شرعيتها، وسقوطه أو نكسه يمثل انهياراً للمنظومة المعنوية والسياسية، وهو ما يفسر استبسال الفرسان الأندلسيين في حماية اللواء الأعظم والالتفاف حوله حتى الرمق الأخير(٤).

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة (لوي)، (رأي).

(٢) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ)، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ، ٥ / ٣١٢.

(٣) القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥ / ١١٨

(٤) ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٠م، ٢ / ٦٥.

المبحث الأول: البعد المادي للراية الأندلسية (الخامة والنسيج بوصفهما دلالة حضارية واقتصادية)

يرتبط التطور السيميائي لأي رمز بصري بطبيعة المادة الخام التي يُصنع منها؛ فالخامة النسيجية للراية لا تعكس فقط الذوق الفني السائد، بل تقدم وثيقة اقتصادية حية حول مستوى الرخاء، والقدرات التقنية، والروابط التجارية للدولة.

المطلب الأول: مرحلة التقشف العسكري وعصر الولاة و: طفرة الحرير الأندلسي وظهور دار الطراز في قرطبة والمرية.

اولاً: مرحلة التقشف العسكري وعصر الولاة:

في المراحل الأولى للاستقرار الإسلامي في الأندلس، والتي تشمل عصر الولاة (٩٥ - ١٣٨هـ) وصدر الإمارة الأموية، كانت الألوية والرايات تُصنع من مواد بدائية خشنة ومحليّة كالكتان الغليظ والصوف والوبر[١]. هذه المواد كانت تعكس بوضوح طبيعة التعبئة العسكرية المستمرة، وحالة التقشف المادي التي فرضتها ظروف الجهاد والاستقرار الأول في بيئة جغرافية صعبة وغير مستقرة سياسياً. فالراية هنا كانت تؤدي وظيفة نفعية عسكرية مجردة (Utility function) خالية من أي بروتوكول ترفي أو استعلائي.

ثانيًا: طفرة الحرير الأندلسي وظهور دار الطراز في قرطبة والمرية:

مع استقرار الدولة الأموية وتوطيد أركانها، لا سيما في عهد الإمارة المستقرة لعهد عبد الرحمن الأوسط (١٩٦ - ٢٣٨هـ) ثم القفزة الحضارية العظمى في عهد الخلافة الناصرية (٣٠٠ - ٣٦٦هـ)، شهدت الأندلس ثورة صناعية كبرى في مجال المنسوجات. حيث أُدخلت زراعة التوت وتربية دودة القز على نطاق واسع في مناطق المرية، وجيان، ومالقة، مما جعل الأندلس واحدة من أهم مراكز إنتاج الحرير الرفيع في العالم الإسلامي والقرن الوسيط[٢].

(١) ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد (ت نحو ٧١٢هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م، ٢ / ٤٥ - ٤٧.

(٢) الإدريسي، محمد بن محمد الشريف (ت ٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ٢ / ٥٦٠.

هذا الازدهار الاقتصادي انعكس فوراً على بنية الراية السلطانية؛ حيث تحول اللواء من الكتان والصوف الخشن إلى الحرير الخالص الموشى بخيوط الذهب والفضة (الديباج والسيراء). ولم يعد الأمر متروكاً للصناعة العفوية، بل أسست الدولة ما يُعرف ب «دار الطراز الملكي» في قرطبة، وهي مؤسسة حكومية مغلقة تخضع لإشراف «صاحب الطراز» (وهو منصب لا يتولاه إلا كبار رجال البلاط وثقات الخليفة)[١].

كانت دار الطراز تعنى بنسج الألوية الخلفية الرسمية، وتطريزها بآيات قرآنية محددة (مثل آيات النصر والفتح) بجانب اسم الخليفة، وتاريخ الصنع، والدعاء له بالتمكين والقبول. إن تحول الراية إلى الحرير المذهب لم يكن مجرد مظهر ترفي، بل كان لغة دبلوماسية مقصودة تهدف إلى إبهار الوفود الأجنبية القادمة من الممالك النصرانية (مثل نافار وليون) أو بيزنطة، وتحقيق مفهوم «الردع البصري السلمي» (Visual Deterrence) عبر استعراض الثراء التكنولوجي والمادي للخلافة القرطبية[٢].

المطلب الثاني: جدلية السواد والبياض والنزاع على الشرعية السياسية بين قرطبة وبغداد

يعد اللون العنصر الأكثر حسمًا وديناميكية في المنظومة السيميائية للرايات؛ فالألوان في الفكر السياسي الإسلامي الوسيط لم تكن حيادية قط، بل كانت بمثابة إعلان أيديولوجي ومذهب سياسي صارخ يحدد التموضع من قضايا الولاء والعداء والخلافة[٣].

اولاً: البياض الأموي في مواجهة السواد العباسي:

حينما نجح عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) في الإفلات من المذابح العباسية في المشرق وتأسيس إمارته المستقلة في الأندلس عام ١٣٨هـ، واجه تحدياً وجودياً يتعلق بالشرعية السياسية والدينية. فقد كان العباسيون في بغداد قد اتخذوا من «السواد» شعاراً رسمياً ومقدساً لدولتهم

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ١ / ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) ابن حيان القرطبي، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١٨٨.

(٣) فوزي، فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، ط١، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٨٨.

(الرايات السوداء، الملابس السوداء، والعمائم السوداء)، واعتبروا السواد رمزاً للشرعية المشرقية[١].

بناءً على ذلك، كان لزاماً على عبد الرحمن الداخل وخلفائه التميز البصري الكامل والعلني عن المشرق العباسي. فاستعاد الأمويون في الأندلس شعارهم التاريخي القديم الذي تميزت به دولتهم في دمشق وهو «البياض». غدت الراية البيضاء الخالصة من أي سواد هي الشعار الرسمي والدستوري للإمارة ثم الخلافة الأموية في قرطبة[٢].

كان رفع اللواء الأبيض فوق مآذن قرطبة وفي مقدمة الجيوش الأندلسية يحمل دلالة سيميائية مزدوجة: الأولى هي الرفض المطلق والعلني للسيادة العباسية واعتبار حكم بغداد حكماً غاصباً لشرعية بني أمية التاريخية، والثانية هي تأكيد الاستقلالية الحضارية والسياسية التامة للأندلس، وتحويل البياض إلى رمز للنقاء والاستقامة الأيديولوجية في مواجهة ما سمّوه في أدبياتهم ب «السواد العباسي المظلم».

ثانيًا: الانعطافة الرمزية الكبرى: تبني السواد في عهد محمد بن يوسف بن هود (ت ٦٣٥هـ):

مع مرور القرون وانهيار الخلافة الأموية بقرطبة، دخلت الأندلس في دوامات الضعف والتشرذم (عصر طوائف الأولى والثانية)، ثم خضعت لحكم القوى المغربية (المرابطون والموحدون) الذين وظفوا رايات وألواناً أخرى ارتبطت بمذاهبهم الدينية كالبياض والشعارات المكتوبة الدينية[٣].

ولكن، شهدت الأندلس في القرن السابع الهجري، وتحديداً بعد التصدع الانهياري لدولة الموحدين عقب معركة العقاب (٦٠٩هـ)، تحولاً سيميائياً مفاجئاً ومثيراً لدهشة المؤرخين. إذ قام الأمير الثائر محمد بن يوسف بن هود الجذامي، والذي تمكن من السيطرة على أجزاء واسعة من الأندلس الممزقة (مرسية، وقرطبة، وإشبيلية)، باتخاذ خطوة سياسية غريبة؛ حيث أعلن إسقاط الرايات الأندلسية والمغربية التقليدية، ورفع مكانها «الرايات السوداء»، وأمر بفرش

(١) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، مؤلف مجهول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص ٩٢.

(٢) ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ١ / ٣٤.

(٣) ابن أبي زرع، علي بن عبد الله (ت ٧٤١هـ)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١١٤.

المساجد بالسجاد الأسود، وارتداء السواد، وإعلان الخطبة الرسمية للخليفة العباسي في بغداد (المستنصر بالله) [١].

إن تفكيك هذا التحول اللوني (من البياض الأموي التاريخي أو الشعارات الموحدية إلى السواد العباسي المشرقي) يكشف عن أزمة شرعية سياسية خانقة كان يمر بها ابن هود. فقد كان يفتقر إلى النسب القرشي الذي يؤهله لإعلان الخلافة في الأندلس، وكان محاطاً بتهديدات عسكرية قشتالية شرسة من الخارج، وثورات داخلية من منافسيه (وعلى رأسهم محمد بن الأحمر مؤسس دولة بني نصر) [٢].

لذا، لجأ ابن هود إلى استراتيجية «استيراد الشرعية الروحية العابرة للحدود» من المشرق. كان رفع السواد في الأندلس بمثابة محاولة سيكولوجية لإقناع النخبة والجمهور الأندلسي بأنه ممثل الخلافة الروحية الإسلامية الكبرى في بغداد، وبالتالي تجب طاعته شرعاً وتوحيد الجبهة العسكرية تحت رايته السوداء[٣]. ورغم أن هذه الخطوة لم تنقذ دولته من الانهيار السريع، إلا أنها تظل وثيقة سيميائية بالغة الأهمية تثبت كيف يمكن للون الراية أن يتحول إلى طوق نجاة سياسي وأداة لإدارة الأزمات الوجودية للدول.

المبحث الثاني: التعددية البصرية وأثرها في تماسك وهيكلية الجيش الأندلسي

تميزت التركيبة الديموغرافية والاجتماعية للمجتمع الأندلسي بتعددية إثنية وقبلية بالغة التعقيد؛ حيث ضم هذا الفضاء: العرب (بفرعيهم العدناني والقحطاني / اليماني)، والبربر (الذين شكلوا العمود الفقري للجيش في عهود مختلفة)، والصقالبة (المماليك المستقدمين من أوروبا)، والمولدين (أبناء البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام)[٤]. هذه التعددية الاجتماعية والقبلية

(١) سالم، السيد عبد العزيز، «حول اتخاذ السواد ورفع الألوية والأعلام السوداء في المغرب والأندلس»، بحث منشور في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٩ - ٢٢.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر (تاريخ ابن خلدون)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ٤ / ١٧٦.

(٣) المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٢٤٤.

(٤) ابن بسام الشنتريني، علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م، ١ / ص ٨٩.

انعكست بشكل مباشر وهيكلي على التنظيم العسكري للجيش الأندلسي وتجلت في مفهوم «التعددية البصرية للرايات داخل المعسكر الواحد».

المطلب الأول: رايات العصبيات القبلية مقابل (اللواء الأعظم) للسلطة:

في عهود القوة والمركزية الشديدة، لاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) وابنه الحكم المستنصر، نجحت الدولة في فرض هيبة وسيادة ما كان يُعرف في المصادر ب «اللواء الأعظم» أو «الراية الخليفية الكبرى». وهي الراية البيضاء الحريرية المطرزة بالذهب والتي تقف خلف الخليفة أو الحاجب (مثل المنصور بن أبي عامر) في قلب المعركة، وتعتبر رمزاً للوحدة السياسية والسيادة العليا للدولة(١).

ومع ذلك، أدركت الإدارة العسكرية الأندلسية بذكاء خطورة قمع «العصبية القبلية» (بالمفهوم الخلدوني)؛ فسمحت للقبائل العربية الكبرى (مثل جذام، وكنانة، والأزد، ولخم) والقبائل البربرية (مثل زناتة وصنهاجة) بالاحتفاظ برياتها الخاصة ذات الألوان والأشكال المميزة داخل المعسكر العسكري(٢).

كانت هذه التعددية البصرية المضبوطة تؤدي وظيفة سيكولوجية تكتيكية فائقة الأهمية:

أولاً: إذكاء روح التنافس والاستبسال بين القبائل؛ حيث تسعى كل قبيلة إلى ألا تُنكس رايتها أو تُهزم الوحدة العسكرية التي تمثلها، مما يحول العصبية القبلية إلى طاقة قتالية إيجابية لصالح الدولة(٣).

ثانياً: تسهيل السيطرة والتنظيم الميداني؛ إذ كان القائد العام للجيش يستطيع من خلال مراقبة توزع الرايات الملونة في الأفق معرفة تموضع الوحدات (الميمنة، الميسرة، القلب) ومتابعة سير المعركة وإرسال المدد للوحدات التي يرى رايتها قد بدأت تضطرب أو تتراجع(٤).

(١) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص ١٩٥ - ١٩٧.
(٢) الحميدي، محمد بن فتوح (ت ٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٤.
(٣) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م، ص ١٢٠ - ١٢٢ (فصل في الرايات والأعلام في الحروب).
(٤) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٢ / ص ١١٥.

لكن هذه التعددية البصرية التي كانت رمزاً للقوة في عهد الخلافة، تحولت إلى رمز للتمزق القاتل في عصر ملوك الطوائف؛ حيث غدت كل مدينة وكل حصن يرفع راية مستقلة تعبر عن أنانية سياسية ضيقة، مما سهل على الممالك النصرانية الاستفراد بالمدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى نتيجة غياب «اللواء الجامع»(١).

ثانيًا: الراية الحمراء لبني نصر وسيكولوجيا الحصار والسقوط في غرناطة:

تمثل مملكة غرناطة (دولة بني نصر أو بني الأحمر: ٦٣٥ - ٨٩٧هـ/ ١٢٣٨ - ١٤٩٢م) الفصل الأخير، والأكثر تراجيدية وشاعرية، في تاريخ الوجود الإسلامي بالأندلس. وقد عكست الرمزية البصرية والجمالية لهذه الدولة حالة «الجغرافيا السياسية الضيقة والحصار التاريخي» الذي فُرض عليها في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط الحواضر الكبرى (قرطبة، وإشبيلية، وبلنسية).

المطلب الثاني: البنية البصرية وسيمياء التعبير التراجيدي

أولاً: سيمياء اللون الأحمر والخط النصري المورق: على النقيض من البياض الأموي التاريخي والسواد العباسي المؤقت، اتخذ بنو نصر من «اللون الأحمر» شعاراً رسمياً ومطلقاً لراياتهم، وملابسهم، وأثاث قصورهم، وتسمية قلاعهم الملكية (قصر الحمراء) (٢). ولم يكن اختيار اللون الأحمر مجرد صدفة بصرية ترتبط بلقب مؤسس السلالة (محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر)، بل كان تعبيراً سيمائياً وسيكولوجياً أعمق يعكس طبيعة المرحلة التاريخية.

فاللون الأحمر في الأنثروبولوجيا العسكرية وسيمياء الحروب هو لون «الدم، والتضحية، والاستنفار الدائم، ومواجهة الخطر الوشيك»(٣). كانت غرناطة تعيش في حالة دفاع استراتيجي مستمر محاطة بممالك قشتالة وأرغون، وكانت تدرك أن بقاءها مرهون بالجهاد والمقاومة المستميتة. وبذلك، تحول الأحمر من مجرد لون عائلي إلى «هوية بصرية تعبوية» تشحذ همم الغرناطيين للدفاع عن معقلهم الأخير.

(١) ابن الخطيب، لسان الدين (ت ٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣م، ١ / ٥٥.

(٢) ابن الخطيب، لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م، ص ٣٢.

(٣) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج٢، ص ١٤٠.

تميزت الراية الغرناطية الحمراء المصنوعة من الحرير الفاخر بوضع شريط أبيض مائل يخترقها من المنتصف، كُتب بداخلها بالخط الأندلسي المورق أو الكوفي الأنيق شعار الدولة المقدس والمشهور: «ولا غالب إلا الله» (١).

إن التفكيك السيميائي لهذا الشعار المكتوب على الراية يكشف عن تحول خطير في السيكولوجيا السياسية الأندلسية؛ فبينما كانت رايات الخلافة الأموية السابقة تُكتب عليها آيات الفتح والتمكين والاستعلاء (مثل: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً») تعبيراً عن حركة التوسع والقوة، جاء شعار بني نصر «ولا غالب إلا الله» ليعكس نوعاً من «الاستسلام والتفويض الروحي الكامل للقوة الإلهية» تعويضاً عن العجز المادي والعسكري البشري في مواجهة التفوق النصراني الكاسح. إنه شعار يمزج بين الكبرياء الديني والاعتراف الضمني بالحصار التاريخي المحيط بالمملكة.

ثانيًا: مشهد السقوط البصري التراجيدي (٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ):

تصل رمزية الراية الأندلسية ذروتها الدرامية في مشهد النهاية يوم تسليم غرناطة. تصف المصادر التاريخية بمرارة بالغة كيف أن اللحظة الفاصلة التي أعلنت زوال السيادة الإسلامية لم تكن توقيع معاهدة التسليم في الغرف المغلقة، بل كانت «الحدث البصري المشهود» عندما صعد الرهبان الكاثوليك والكونت دي تنديا إلى أعلى برج في قصر الحمراء (برج المراقبة) وقاموا بإنزال الراية الحمراء لبني نصر التي كانت تخفق في سماء المدينة لقرون، ورفعوا مكانها راية قشتالة البيضاء الضخمة وعليها صليب الفضة الكبير وشعار الملوك الكاثوليك (فرناندو وإيزابيلا) (٢).

في تلك اللحظة البصرية، انخرط سكان غرناطة في بكاء جماعي، والتفت الملك المعزول أبو عبد الله محمد الصغير لينظر إلى القصر والراية المرفوعة ويسكب دموعه الشهيرة(٣). إن هذا المشهد يثبت أن «الراية» هي المختزل البصري المكثف لسيادة الدولة، وأن سقوطها الفعلي هو الإعلان الرمزي لانتهاء الحضارة والسيادة السياسية.

(١) ابن عاصم، الغرناطي (ت ٨٢٩هـ)، مرتقى الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: محمد المختار، جدة، ١٩٩٠م، ص ٧٧.

(٢) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٤ / ٣١٠ - ٣١٣.

(٣) مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق: ألفريد بستاني، دار الثقافة، طنجة، ١٩٤٠م، ص ٤٨.

الخاتمة

تأسيساً على ما تقدم من طروحات تفكيكية وسيميائية وتاريخية موسعة عبر محاور هذا البحث، خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج العلمية المحورية:

أولاً: أهم النتائج:

١. تجاوز الوظيفة العسكرية: أثبت البحث أن الألوية والرايات في الأندلس تجاوزت وظيفتها التكتيكية النمطية في تنظيم الصفوف العسكرية، لتملأ وظائف أيديولوجية وسيميائية فائقة الأهمية ك «وثائق بصرية متحركة» تعبر عن طبيعة التحولات السياسية، وصراع الشرعيات، وإدارة الأزمات الوجودية للنظم الحاكمة.

٢. الخامة كمرآة اقتصادية: كشفت الدراسة أن الأنثروبولوجيا المادية للراية (التحول من الكتان والصوف الخشن إلى الحرير والديباج الموشى بالذهب عبر دور الطراز الملكي) كانت تواكب بدقة الطفرات الاقتصادية والتكنولوجية للدولة، ووُظفت كأدوات للدبلوماسية الرفيعة وتحقيق «الردع البصري السلمي» أمام الممالك الأوروبية.

٣. أيديولوجيا الألوان وإدارة الشرعية: بينت الدراسة جدلية الصراع اللوني؛ حيث مثل «البياض الأموي» بقرطبة صرخة استقلال سياسي ورفض مطلق للتبعية المشرقية العباسية المتشحة ب «السواد»، في حين مثلت الانعطافة الرمزية لتبني السواد في عهد ابن هود استراتيجية سيكولوجية لاستيراد شرعية روحية مشرقية عابرة للحدود محاولةً لتوحيد الجبهة الداخلية المتصدعة.

٤. سيكولوجيا السقوط النصري: أظهر التحليل السيميائي لراية بني نصر الحمراء وشعارها «ولا غالب إلا الله» كيف تماهى اللون (المنذر بالدم والخطر) والشعار المكتوب (المفوض للقوة الإلهية) مع سايكولوجيا الحصار المفروض على مملكة غرناطة في فصلها الأخير، ليغدو إنزال هذه الراية من فوق أبراج الحمراء الإعلان الرمزي والبصري الأخير لزوال السيادة الإسلامية في الأندلس.

ثانياً: أهم التوصيات:

١ - توسيع المقاربة المنهجية: الاستمرار في تطبيق المنهج السيميائي الاجتماعي (Socio - semiotics) على عناصر حضارية ومادية أخرى في الأندلس (كالعمارة، والنقود، والملابس

الرسمية)، وعدم الاكتفاء بالسرد التاريخي التقليدي.

٢ - دراسة رايات دول المغرب الإسلامي: يوصى بإجراء دراسة مقارنة ومكملة تفكك السيمياء البصرية لرايات القوى المغربية (كالمرابطين والموحدين والمرينيين) التي حكمت الأندلس أو أثرت فيها، لمعرفة مدى تداخل شعاراتها الدينية مع الواقع الأندلسي.

٣ - أرشفة وإعادة ترميم النص البصري الأندلسي: حث الباحثين والمؤسسات الأكاديمية على جمع وتوثيق الإشارات الواردة في «دور الطراز» والمصادر الأصيلة، ومحاولة إعادة رسم أو رقمنة الرايات الأندلسية اعتماداً على الأوصاف الدقيقة الواردة في المخطوطات لتقديم أطلس بصري تاريخي للأجيال القادمة.

ثبت المصادر والمراجع

١. أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، مؤلف مجهول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

٢. ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

٣. ابن بسام الشنتريني، علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

٤. ابن حيان القرطبي، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.

٥. ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٠م.

٦. ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣م.

٧. ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣, ١٩٨٠م.

٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر (تاريخ ابن خلدون)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

٩. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م.

١٠. ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت ٥٩٤هـ)، المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

١١. ابن عاصم الغرناطي، أحمد بن محمد (ت ٨٢٩هـ)، مرتقى الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: محمد المختار، جدة، ١٩٩٠م.

١٢. ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد (ت نحو ٧١٢هـ)، البيان المغرب في أخبار

الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

١٣. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ)، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٤. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٥. الإدريسي، محمد بن محمد الشريف (ت ٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٦. الحميدي، محمد بن فتوح (ت ٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٧. المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م.

١٨. المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

١٩. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٠. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.